تاريخ تطور
طقوس الديوان و
الكَناوة
Gnawa
في مدينة قسنطينة
مابين القرنين 19/18 م

طقوس ديوان / Gnawa في قسنطينة (الجزائر) مابين القرنين 18 و 19 م

(دراسة ثقافية تاريخية لحقيقة الطقوس وأصولها)

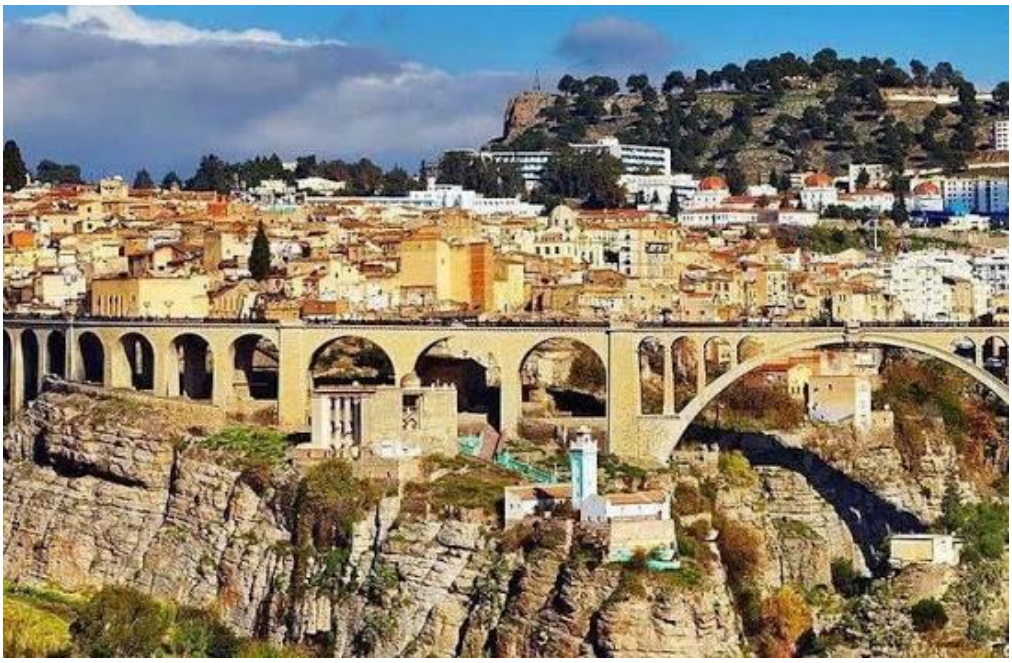

تقديم : لقد تجذرت في قسنطينة عادات وطقوي تحدّث عنها المؤرخون ، بل وكانت محطة مرّ بها البوني وكانت موطنا لخلوات العارفين الروحيين الكبار ، وكانت الطقوس منتشرة حتى يخصص لذكرها القاضي الشاعر الفقيه محمد المولود بن الموهوب (1866-1939) الذي كان مفتيا لقسنطينة قصيدة سماها المنصفة ، وهي تشهد على قدم طقوس الزار (النشرة) والغابة والغراب وذبح الحمام وزردة سيدي مسيد بالطبول ، حيث يقول :

وسلْ "زَارَا" و"نِسْر مَسِيد طَبْلٍ ""وَزِينَتُنَا" تَبيعُ التّابِعِينَا

وسلْ عنَّا "السّلاحِفَ في غُراب ""وأعْطَارًا" تراق، عَائِمينا

وسلْ "غَابَا" لحكم الجِنّ أضحى يَقِينًا، كلّ ضُرٍّ قد يَقِينا

وسلْ ذَاك "الحَمَامَ" لَدَى حِمَام تُذَبّحه بِلا اسْمٍ عَامِدِينا

وسلْ "سِدْرَا" به خِرقٌ أُنيطت ،وغيرا، حيث نَفْزع نَاذِرِينا

ألا يا قومُ، ما الإسلامُ هذا ،ودين الله ربّ العالمينا؟

!أتى الإسلام يأمرنا بعلم ،وسير في النّافع ما حَيينا

ولهذا على المثقف المؤرخ أن يهتم بتأريخ الطقوس ، وأن يقف موقفا علميا أمامها متخذا هذه الطقوس شاهدا على تطور التاريخ البشري .

1- الوصفان قديما أو Gnawa: الوصفان أو الديوان ويعرفون بالقناوة في المملكة المغربية والغرب الجزائري وسطمبالي في تونس الشقيقة، أما في قسنطينة فيسمون بالوصفان، والكلمة قادمة من اللغة العربية كما يشرحها الفيروزآبادي في القاموس المحيط وكذلك ابن منظور في لسان العرب بأن لها علاقة بالخدمة، فالوصفان جاؤوا من بلاد الساحل الأفريقي - مالي والنيجر والسينغال، ودخلوا الشمال الأفريقي باعتبارهم تبعا للأسياد الذين ملكوهم، لكنهم دخلوا إلى الإسلام وأصبحوا أحرارا، وبقيت معهم عاداتهم وأغانيهم التي تعبق برائحة الفلكلور الأفريقي المستمد من طقوس الفودو Vaudou وغيرها من الروحانيات الإفريقية ، هناك من يقول بأنهم جاؤوا إلى الشمال الأفريقي بهدف التجارة والعمل في أواسط القرن 17 م طابع الوصفان / Gnawa هو طابع غنائي طقوسي تستخدم فيه الطبول - البنقة والكركطو، والقرقابو والقمبري، ويغنى فيه باللغة السواحلية القديمة (العجمية)، تختص قسنطينة بهذا النوع الغنائي المميز من خلال فرقتين عريقتين (دار بحري) في السويقة و (دار هوسة) في سيدي الجليس ، وقديما في الطريق المؤدّي إلى رحبة الصوف " الصاباط ، وجد ديوان سيدي ميمون .

2- قبائل الأفارقة وأصولهم التي نقلوا منها طقوسهم :

القبائل هي أربعة : أولاد بامبار، أولاد هاوسا، أولاد مقزاوا، أولاد جراي وتحمل كل قبيلة لهجة خاصة بها. وهذا يوافق ما أشار إليه الباحث المستشرق (Bruyn J Andrews)؛ حين فصّل في انتماء جماعة "الديوان" بالجزائر المنحدرة من سبع قبائل إفريقية، تفرعت عنها سبع ديار، وكل "دَار" يمثلها" قائد الفرقة أو كما يطلق عليه لقب "المْقَدَمْ"، وقسّمها إلى قسمين : ديار الغرب وديار الشرق، ديار الغرب تتكون من : "بمبارا" وهي قبيلة من السنغال والنيجر، وهي أكثر هذه القبائل تعدادا، وقبيلة "سنغاي" من تمبوكتو، وقبيلة "تمبو" و"ڤورما" من النيجر وهم أقل عددًا. أمّا ديار الشرق : فانحدرت منها قبيلة "كاتشانا" من الهاوسا، وأكثرهم من المسلمين وقبيلتي "زوزو" و"بورنو" (Bruyn, 1903, p. 16). والجدير بالذكر أن هذه المسارات ساهمت في تشكيل هوية موسيقى "الديوان" بالجزائر، من حيث تنوع أغانيها وألحانها وطقوسها ممّا يؤكد على أصولها الإفريقية. وبالتالي، يمكن اعتبار هذه الموسيقى جسرا يربط بين فترات تاريخية وأماكن مختلفة.

2 - استمرارية العادات : يقول العالم الأوروبي Arnold van Gennep وهو دارس أنثروبولوجي بأنّ كثيرا من الطقوس التي حملوها معهم ظلّت موجودة ،

كالاستعانة بالقوى الخفيّة ، وتقديم طقوس القرابين ، ولكنّهم صبغوها بصبغة إسلامية لمّا دخلوا الإسلام ، فأصبح الروحانيّون الشعبيّون في شمال إفريقيا (المغرب ، الجزائر وتونس) يستخدمون موسيقى الديوان / Gnawa للاتصال بالعالم الروحي للجن ، فهي في بدايتها موسيقى تؤدّي وتعزف ، ويتكفّل صاحب الطقوس بكافة الممارسات ، وهذا بخلاف العارفين بالعلوم الروحيّة الذين لا يستعينون إلا بمعارف علوم الحرف والجداول والأوفاق والعزائم وغيرها.

ألا تزال العادات مستمرة ؟ بشكلها الحالي تعدّ طقوس الديوان ناقصة عمّا كانت عليه ، فقد غابت عنها كثير من الطقوس ممّا حوّلها هذه السنوات الأخيرة إلى طقوس موسيقيّة غالبا ، وحتى ما تؤديه النساء لا يعدو أمرا شكليا روحيّا ، فقد كان الممارسون للطقوس الروحية يأتون بالديوان من أجل أن يعزفوا فقط ، أمّا التحضير الروحي وما يلزمه فعلى عاتق الممارس لهذه الطقوس.

3- الموسيقى وطقوس النشرة في قسنطينة : للموسيقى دور بارز في آداء هذه النشرة ، فهي تأتي كعنصر متمّم يكمل هذه الطقوس ، لأنّ العمل الأساسي عند من

يمارس هذا الأمر ، وليس عند الموسيقيين / العازفين ، فالأساس هو ذلك المجمع الذي يحضّره من يمارس الطقوس وليس خاصا بالفرقة التي تؤدي الموسيقى مثلما نراه اليوم ، وهذا المجمع أو الطبق المتكون من : البخور والعطور ، الألبسة المختلفة حسب الألوان الروحيّة ، والأكسسوارات التي تلحقها وكذلك إناء الحنّاء وأطباق حلوى " الطمّينة " أو كما تسمّى في تونس العصيدة ، كما يجب التأكيد أن الذي يمارس طقس النشرة حرّ في اختيار أي فرقة تؤدي هذه الطبوع ، فبعضهم يتعامل مع "الجيلالة" و" الشابيّة " وكلاهما في منطقة المغرب العربي يؤديان هذه الموسيقى باستخدام الدفوف والقصب (آلة ناي طويلة) وبعضهم مع " العيساوة " وآخرون مع كناوة ، والبعض يفضل الفقيرات خاصة النساء ، ويبقى المجال مفتوحا لأن الأساس هو ما يحضّره صاحب النشرة ، وليس ما يؤديه العازفون.

4 - الألوان في طقوس Gnawa قديما في قسنطينة :

حسبما كتبه الدارس الفرنسي أواخر القرن 19 حول ما شاهده وعاينه في طقوس الديوةان في قسنطينة ، فقد كان من يمارسون طقوس النشرة أو الزردة أو أي طقس يحضر فيه من يؤدون موسيقى الديوان الإفريقية يخصصون لكل مجموعة من الأرواح (الجن) لونا معينا ، حيث يحصل ترتيب الألوان عبر نوبة

(النوبة) تتوالى فيها آداء أنواع من النغمات بالطبول ، واليوم لا نجد أثرا لبعض هذه الألوان والطقوس ، لأنها اختفت عند من يمارسونها أو احتفظوا بها سرّا كاحتفاظ بعض العائلات بديوان سيدي ميمون ، وكذلك بديوان ريمة (لالة ريمة أو لالة ميرة صاحبة اللون الأصفر) .

ـ أولا : اللون الأبيض ، وكانوا ـ حسب ما كتبه Edmond Doutté عن طقوس ممارسي الديوان في قسنطينة ـ يخصصونه لأرواح الخير وما يجلبهم كمديح الله ورسوله ويجعلون له بخورا خاصا وهو الجاوي الأبيض وكذلك اللبان الذي كانت تجلبه القوافل الجنوبية مرورا بتقرت قادما من عمان .

ثانيا : اللون الأسود وهو خاص بالملوك الميامين الكبار منهم ، وكان في قسنطينة قديما ديوان ميمون ، ويجعلون له بخور الجاوي الأسود وكذلك اللبان ، وتؤدى طقوسه بلباس جلد ماعز ذكر أسود ، وطاقية سوداء ، ويحملون سلاحا يشبه فأس الحطاب أو منجلا كبيرا من حديد . (ومعه كذلك نوبة بوسعدية)

ثالثا : اللون الأزرق وهو خاص بدخول طقوس الماء ، مع ميمون الغواص أو البحراوي ، وبخوره جاوي أبيض وعود ، وحسب ما وصفه René duval فإنّ في قسنطينة يعتمدون لباس الفضة في هذا الطقس . (نوبة الماء وكذلك الأرواح التي تعيش في مجاري المياه وحتى المرحاض)

رابعا : اللون الأحمر : وهو خاص بالأرواح التي ترتبط بالدم ، ويلبسون له لباسا أحمر ويحمل من يؤدي الطقوس سلاحا يحضره ويخصصه عنده لآداء هذه الطقوس كسيوف أو خنجر كبير ، وبخوره جاوي أحمر وعود صندل أحمر ، وفي قسنطينة وبالضبط في القرن 18 كانت الطقوس تؤدّى بحسب الأيام كذلك فكان يخصص لكل طقس يوم .

ـ خامسا : اللون الأخضر ، وكهناك من كان يلبس بدلا عنه ألوانا متداخلة كثيرة ، لأنه خاص بالأولياء ومرقعاتهم (بودربالة) فهو ألوان كثيرة ممتزجة bariolé ويبخرونه كذلك باللبان وعود قماري .

ـ سادسا : اللون الأبيض مع الأخضر وهو خاص بقاضي الجن ، وبخوره الجاوي والعود ، ويلبس له لباس الطلبة les talibes وله عمامة وعصا .

ـ سابعا : اللون الأصفر ، وهو خاص بلباس الذهب ، وبخوره لبان ومصطكى ، ويلبس من يمارس الطقوس الأصفر وعمامة فيها حلقة ذهب .

بهذا الترتيب كانت الطقوس في القرن 18 وما قبله حتى مطلع القرن العشرين ، وفيها تشابه كبير مع طقوس الغرب الجزائري ، والمملكة المغربيّة ، ونجد لذلك شواهد عند الباحثة الأنثروبولوجية viviana paque ، ولا ننسى بأنّ الدراسات التي انطلقت مع الحقبة الاستعمارية هي التي كشفت عن أبعاد هذه الممارسات ، تاركة وراءها الطريق ممهدا للبحث والتصنيف .

وإنّ النّقص الذي أصاب طقوس الديوان في مناطق الشرق الجزائري ، كنسيان بعض الألوان والطقوس أو ما يسمّى بالنوبات كنوبة البوهالي أو السايل (المتسول) ونوبة Gourma ونوبة مليكة أو طقوس الشموع أوغيرها ، جعل الديوان يصبح موسيقى ينقصها الجانب الطقوسي ، ويجعل دورها العلاجي الوسائطي ينقص ويتراجع .

المصادر والمراجع :

1- كتاب "كناوة: الطقس والذاكرة" – عبد الحميد الماروق ، دار النهضة للنشر والتوزيع.

2- كتاب "موسيقى الديوان وبنياتها الإيقاعية والطقوسية في الجزائر" – أحمد أمين دلاي ، دار الوطن للنشر والتوزيع .

3- كتاب "سودان تونس: دراسة أنثروبولوجية في الهوية والمواطنة والطقوس الروحية" – عماد الملاّح، دار نهضة الكتب .

4- دراسة "التعبيرات الطقوسية لـ 'كناوة': من الهامش إلى المركز" – مجلة إنسانيات (الجزائرية)

5- "Les Gnawa du Maroc : Rites d'esclavage et de possession" – Viviana Pâques

6- "L'esclavage en terre d'Islam : Un tabou bien gardé" – Malek Chebel

7- "Croyances et pratiques magico-religieuses en Afrique du Nord" – Émile Dermenghem

8- سليم خياط، (2008). طبول الجلالة وأوتار الأصول في موسيقى فنة السود. كتاب جماعي أنثروبولوجيا وموسيقى. **الجزائر : منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان.**